حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ

فِي وَقْتِ الصَّحْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ المُبَارَكَةِ وَالمَدِّ الجَارِفِ لَهَا، وَمَعَ الهُجُومِ البَشِعِ السَّافِرِ دُونَ مُوَارَبَةٍ عَلَى الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ...

فِي وَقْتِ (الفِرْعُونِيَّةِ) الحَاكِمَةِ [حُكْم "فِرْعُونَ" الظَّالِمِ المُسْتَبِدّ الطَّاغِيَةِ الغَشُومِ]، وَ(القَارُونِيَّةِ) الكَانِزَةِ [كَنْز "قَارُونَ" الفَاسِدِ البَاغِي المُسْتَكْبِرِ بِسُلْطَانِ وَطُغْيَانِ مَالِهِ وَعِلْمِهِ][1]، وَ(الهَامَانِيَّةِ) المُسْتَوْزَرَةِ [وَزَارَة "هَامَانَ" الدَّاهِيَةِ المُنَافِقِ المُدَبِّرِ لِمَكَائِدِ فِرْعَوْنَ، المُعِينِ لَهُ عَلَى ظُلْمِهِ وَبَطْشِهِ]؛ الَّتِي أَدَّتْ بِالأُمَّةِ إِلَى النُّكُوصِ، وَالنُّزُولِ نَحْوَ السُّفُولِ بَلْ إِلَى الحَضِيضِ الأَوْهَدِ [إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ]. ...

فِي زَمَانِ الفِتَنِ [حَيْثُ أَتَتْ أُكُلَهَا وَثِمَارَهَا العَطِبَةَ العَفِنَةَ]، وَظُهُورِ الفَسَادِ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَاسْتِحْكَامِ حَلَقَاتِهِ وَعُلُوِّ دَوْلَتِهِ وَصَوْلَتِهِ وَجَوْلَتِهِ، وَالغُرْبَةِ المُسْتَحْكَمَةِ؛ مَعَ عُلُوِّ أَهْلِ البَاطِلِ وَكَثْرَةِ نَفِيرِهِمْ وَرَدِّ النُّصُوصِ وَالثَّوَابِتِ وَالأُصُولِ وَمُحَاوَلَةِ نَقْضِ عُرَى الإِسْلَامِ ...

---

(١) وَقَارِنْ بَيْنَ الطَّائِفَةِ [وَمَا أَكْثَرَهَا] الَّتِي وَقَفَتْ أَمَامَ فِتْنَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَقْفَةَ المَأْخُوذِ المَبْهُورِ المُتَهَاوِي المُتَهَافِتِ، وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الأُخْرَى [وَمَا أَقَلَّهَا فِي كُلِّ عَصْرٍ] الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى هَذَا كُلِّهِ بِقِيمَةِ الإِيمَانِ وَالرَّجَاءِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ وَالاعْتِزَازِ بِثَوَابِ اللهِ.

فِي وَقْتِ تَكَالُبِ أَعْدَاءِ الأُمَّةِ عَلَى قَصْعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَسْخِيرِهِمْ لإِمْكَانَاتٍ هَائِلَةٍ مَادِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ، وَإِبْدَاعِهِمْ وَسَائِلَ لِلْمَكْرِ وَالكَيْدِ بِأُمَّتِنَا الإِسْلاَمِيَّةِ، ... وَمُحَاوَلَة تَجْفِيفِ المَنَابِعِ الإِسْلاَمِيَّةِ [وَخَاصَّةً: (الفِكْرِيَّة)]، وَتَلْغِيمِ الأَرْضِ وَوَضْعِ العَوَائِقِ أَمَامَ المُصْلِحِينَ وَالحَيْلُولَةِ بَيْنَهُمْ وَالنَّاسِ.

وَفِي آنٍ؛ تَآلَبَ فِيْهِ كِلاَبُ الأَرْضِ عَلَى كَسْرِ بَيْضَةِ أُمَّتِنَا، لِمَسْخِ هُوِيَّتِهَا وَإِسْقَاطِهَا فِي مُسْتَنْقَعِ التَّبَعِيَّةِ وَحَمْأَةِ الرَّزِيْلَةِ. ...

فِي هَذَا الْوَقْتِ بِالذَّاتِ؛ وَسَطَ المَخَاضِ العَسِرِ الأَلِيمِ، وَالخُطُوبِ المُدْلَهِمَّةِ وَالتَّحَدِيَّاتِ الخَطِرَةِ؛ وَقَدْ كَثُرَتْ وَتَكَالَبَتْ فِيهِ العَوَائِقُ وَالصُّعُوبَاتُ، وَازْدَادَتْ وَتَفَاقَمَتْ فِيهِ الانْشِطَارَاتُ وَالانْقِسَامَاتُ ...

فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ؛ تَشْتَدُّ الْحَاجَةُ لِلنَّقْدِ الذَّاتِيِّ الْهَادِفِ الْبَنَّاءِ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الصِّدْقِ وَالمُصَارَحَةِ وَالمُكَاشَفَةِ (وَالمُنَاصَحَةِ).

وَهَذَا النَّقْدُ الْبَنَّاءُ يَجِبُ أَنْ: يَرْتَبِطَ بِالْوَاقِعِ المُعَاشِ [بَعْدَ التَّعَرُّفِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ وَبِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ سَلْبِيَّاتٍ وَإِيجَابِيَّاتٍ]، وَالتَّأْصِيلِ العِلْمِي المَكِينِ الوَاعِي القَائِمِ عَلَى البَصِيرَةِ لِلأَعْمَالِ وَالبَرَامِجِ وَالوَسَائِلِ، مَعَ الرُّؤْيَةِ الكُلِّيَّةِ الصَحِيْحَةِ؛ بَعْدَ: دِرَاسَةِ النَّمُوذَجِ المَعْرِفِيِّ الصَّحِيحِ، والمُجَابَهَةِ الصَّرِيحَةِ لِلْعِلَلِ، وَمَعْرِفَةِ وَكَشْفِ طَبِيْعَةِ الأَسْبَابِ الْفَاعِلَةِ فِي الأَحْدَاثِ وَتَعْيِينِ مَدَاهَا وَتَأْثِيرِهَا، وَالخُلُوصِ إِلَي اللُّبَابِ النَّقِي مِنْ بَيْنِ أَكْوَامٍ مِنَ الرُّكَامِ الغَثِّ، وَالعَمَلِ عَلَى تَطْوِيرِ الذَّاتِ وَبِنَائِهَا (عَقْلِيًّا، وَمَعْرِفِيًّا، وَعَمَلِيًّا، وَتَرْبَوِيًّا).. مَعَ الحَاجَةِ المُلِحَّةِ إِلَى التَّأْصِيلِ الثَّقَافِيِّ

الحَضَارِيِّ وَالمَنْهَجِيِّ المَرْجِعِيِّ، مَعَ ضَمَانِ الاسْتِمْرَارِيَةِ وَقُوَّةِ الدَّفْعِ (بَعْدَ القَضَاءِ عَلَى اليَأْسِ وَالقُنُوطِ، وَالبُعْدِ عَنِ التَّكَاسُلِ وَالتَّخَاذُلِ) ... وَالتَّعَامُلِ مَعَ الْوَاقِعِ -بَعْدَ اسْتِيعَابِ المُتَغَيِّرَاتِ الكَثِيرَةِ مِنْ حَوْلِنَا (مَحَلِّيًّا وَعَالَمِيًّا)- وَتَحْوِيلِهِ إِلَي نَصٍّ جَدِيدٍ وَإِلَي مَيْدَانٍ لِلْفِعْلِ. .. وَالدُّخُولِ فِيهِ دُونَ الهُرُوبِ مِنْهِ [تَحْتَ الأَرْضِ أَوْ خَارِجَ الأَرْضِ!!] وَالتَّمَرُّدِ عَلَيْهِ أَوْ الانْخِرَاطِ فِيْهِ فَوْقَ الأَرْضِ. .. وَكَيْفِيَّةِ صِيَاغَةِ أَوْلَوِيَّاتِهِ وَقَضَايَاهُ [مَعْرِفَةُ فِقْهِ الأَوْلَوِيَّاتِ، وَحُسْنُ صِيَاغَتِهَا، وَتَرْتِيبُهَا، وَالسَّعْيُ إِلَى تَحْقِيقِهَا بِبَذْلِ كُلِّ الجَهْدِ المُسْتَطَاعِ]، وَتَرْسِيخِ الثَّوَابِتِ [وَتَعْمِيقِهَا فِي النُّفُوسِ]، وَتَمْيِيزِ الصُّفُوفِ [وَمَا أَشَقَّ ذَلِكَ] [﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال/ ٤٢)]، وَالنُّهُوضِ بِالعَمَلِ [الجَادِّ]، وَتَطْيِيبِ ثِمَارِهِ، وَاسْتِكْشَافِ آفَاقِهِ وَمَجَالاَتِهِ .. فِقْهًا مُتَكَامِلاً يَجْمَعُ بَيْنَ: الأَصَالَةِ العِلْمِيَّةِ، وَالتَّجْرُبَةِ العَمَلِيَّةِ الَّتِي تَضْبِطُ الوَاقِعَ المُعَاشَ. [الإِدْرَاك وَالوَصْف، ثُمَّ التَّحْلِيل] [الجَمْعُ بَيْنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ]

مَعَ قَطْعِ جُذُورِ وَرَوَافِدِ الاخْتِلاف [الذَّاتِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ .. مِنْ دَاخِلِنَا أَوْ مُصَدَّرَةً لَنَا] [مَعَ بَتْرِ مَنْ يَنْشُرُهَا (أَيًّا كَانَ)]؛ وَذَلِكَ بَعْدَ العَمَلِ عَلَي تَحْدِيدِ نِقَاطِ الخِلاف [بِشَفَافِيَةٍ وَمَوْضُوعِيَّةٍ] [وَمَعْرِفَة مَا يُجُوزُ فِيهِ الخِلاَفُ وَمَا لاَ يَجُوزُ]، وَالعَمَلِ عَلَي مُحَاصَرَتِهِ [بَعْدَ تَحْجِيمِهِ]، وَدَفْعِ غَائِلَتِهِ، وَنَبْذِ أَسْبَابِ الفُرْقَةِ وَالشِّقَاقِ بِمَا فِيهَا مِنْ بِدَعٍ وَأَهْوَاءٍ وَتَعَصُّبٍ مَقِيتٍ (وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الهَوَى) بِكَافَّةِ صُوَرِ ذَلِكَ؛ حُبًّا أَوْ بُغْضًا لِشَيْخٍ أَوْ زَعِيمٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ فِرْقَةٍ أَوْ حِزْبٍ أَوْ

جَمَاعَةٍ أَوْ رَأْيٍ ... الَخ [مَعَ التَّنَبُّهِ لِلتَّحَدِّيَاتِ الكُبْرَى وَالقَضَايَا العَظِيْمَةِ الَّتِي تُعانِي مِنْهَا الأُمَّةُ] [وَمَعْرِفَة (فِقْهِ الأَوْلَوِيَّاتِ)]، وَضَرُورةِ الاجْتِمَاعِ الرَّاشِدِ المُقْتَبَسِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ [فَـ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحُجُرَات/ ١٠)؛ فَلاَ تُتَصَوَّرُ عَلاَقَةٌ تَرْبِطُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ إِلاَّ الأُخُوَّة!].

وَعَدَم اخْتِزَالِ المُشْكِلاَتِ [الَّتِي نُعَانِي مِنْهَا] في مُشْكِلَةٍ وَاحِدَةٍ [مَهْمَا عَظُمَتْ]، وَعَدَم اخْتِزَالِ الوَطَنِ [كُلِّهِ] في القَاهِرَةِ مَثَلاً [وَالغَفْلَة عَنْ بَقِيَّةِ الوَطَنِ كَسَيْنَاءِ وَالنُّوبَةِ وَسِيوَة وَ ...]، وَاخْتِزَالِ القَاهِرَةِ في مَيْدَانِ التَّحْرِيرِ [كَمَا الآنَ]!

وَمَعَ تَرْكِ المِرَاءِ وَالجَدَلِ فِي كُلِّ مَا لاَ طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ وَمَا لاَ يَنْبَنِي عَلَيْهِ عَمَلٌ؛ وَلاَ يُثْمِرُ إِلاَّ السَّفْسَطَةَ وَالشِّقَاقَ (وَالمُرَّ وَالعَلْقَمَ).

وَتَجْنِيبِ الهَوَى المُطَاعِ؛ الَّذِي يُوَجِّهُ الآرَاءَ وَالأَفْكَارَ، وَالَّذِي يُوقِعُ فِي الشُّبُهَاتِ وَالتَّأْوِيلاَتِ الفَاسِدَةِ، وَمَا فِيهِ مِنْ غُرُورٍ بِالنَّفْسِ، وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ إِعْجَابٍ بالرَّأْيِ وَالكِبْرِ عَلَي الخَلْقِ، وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ إِصْرَارٍ عَلَي الخَطَأِ وَالوُقُوعِ فِي سُوءِ الظَّنِّ بِالآخَرِينَ. .. [وَمَا أَكْثَرَ ذَلِكَ]

فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؛ انْتَفَى السَّبَبُ الرَّئِيسُ لِلْنِزَاعِ والتَّفَرُّقِ وَالتَّشَرْذُمِ وَتَعَدُّدِ جِهَاتِ القِيَادَةِ وَالتَّوْجِيهِ فِي الأُمَّةِ [وَإِصْرَار كُلِّ (فَصِيلٍ) عَلَى تَوَلِّي القِيَادَةِ، وَكُلٌّ تَكُونُ لَهُ وَحْدَهُ (الزَّعَامَةُ)].

مَعَ عَدَمِ اتِّشَاحِ الخِطَابِ بِوِشَاحِ اليَأْسِ والحُزْنِ العَمِيقِ، وَجَلْدِ الذَّاتِ وَتَحْقِيرِهَا؛ بَلْ وَازْدِرَائِهَا (بِالتَّحَامُلِ عَلَي أَنْفُسِنَا وَإِلْصَاقِ كُلِّ النَّقَائِصِ بِهَا)، وَرُبَّمَا يَصِلُ الحَالُ إِلَي القُنُوطِ، بَلْ .. رُبَّمَا إِلَى (المَوَاتِ)!

وَعَدَمِ تَغْلِيفِ العَقْلِ بِرُمُوزِ وَسَلاَسِلِ وَأَغْلاَلِ (الاسْتِحَالَةِ) [قَوْل: (مُسْتَحِيل أَنْ يَحْدُثَ كَذَا ...)] [وَيَجِبُ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ مَا هُوَ (صَعْبٌ) وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مُمْكِنٌ، وَمَا هُوَ (مُسْتَحِيلٌ)] الَّتِي تُؤَدِّي بِصَاحِبِهَا إِلَي الاسْتِهَانَةِ [وَأَيْضًا: الاسْتِكَانَةِ وَالخُنُوعِ]؛ بَلْ والاسْتِهْزَاءِ بِكُلِّ الآرَاءِ وَالأَفْكَارِ وَالمَفَاهِيمِ وَالمُقْتَرَحَاتِ الإِيجَابِيَّةِ البَنَّاءَةِ، وَالصَّيْرُورَةِ إِلَي عَدَمِ الإِقْدَامِ وَالحَرَكَةِ، وَالتَّقَوْقُعِ وَالانْحِسَارِ.

وَلاَ بُدَّ مِنَ التَّجَرُّدِ وَالاسْتِسْلاَمِ الكَامِلِ لِله وَالرَّسُولِ ﷺ، وَأَنْ تَكُونَ المَرْجِعِيَّةُ الوَحِيدَةُ لِلأُمَّةِ هِيَ: (الكِتَابُ)، وَ(السُّنَّةُ)؛ بِفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ [مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَأَئِمَّةُ الدِّينِ].

فَالنَّصُّ لَيْسَ (جُثَّةً) يَبْعَثُ فِيهَا كُلُّ مِنَّا الحَيَاةَ كَمَا يَشْتَهِي؛ فَتَتَحَرَّكُ وَتَنْطِقُ بِمَا يُرِيدُ، إِنَّ المُبْتَدِعَ الغَارِقَ فِي بِدْعَتِهِ يُرِيدُ أَنْ يُطْلِقَ الأَشْبَاحَ وَالخَيَالاَتِ المَرِيضَةَ الَّتِي تَسْكُنُ بِدَاخِلِهِ وَيُلْبِسُهَا (النَّصَّ)... إِنَّهُ يُعْطِي لِنَفْسِهِ حُرِّيَّةَ التَّعْبِيرِ عَنِ (النَّصِّ) حَتَّى لَوْ صَادَمَ (النَّصُّ) (النَّصَّ) نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ (النُّصُوصِ)!

فَتَتَأَرْجَحُ الآرَاءُ وَتَتَضَارَبُ وِجْهَاتُ النَّظَرِ:

مَا بَيْنَ الْعَوْدَةِ إِلَى (الْمَاضِي) يَشُدُّنَا إِلَيْهِ الحَنِينُ إِلَى المَجْدِ التَلِيدِ وَمَا كَانَ فِي الأَمْسِ السَّاطِعِ مِنْ أَنْوَارِ العِزَّةِ.. [عَهْدِ الانْتِصَارَاتِ وَالْفُتُوحَاتِ؛ لاَ مَا نَحْيَاهُ مِنْ هَزَائِم وَانْكِسَارَاتٍ وَانْتِكَاسَاتٍ وَ.. انْهِزَامِيَّةٍ وَذِلَّةٍ وَتَخَلُّفٍ]، وَالخُلُوصِ مِنْ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ المُدْلَهِمَّةِ الَّتِي تَجْسِمُ عَلَى أَنْفَاسِ الأُمَّةِ، .. مَعَ دَعْوَةٍ صَارِمَةٍ لِنَبْذِ كُلِّ (جَدِيدٍ)، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ بِرِيبةٍ وَتَوَجُّسٍ، وَأَنَّهُ مَكْمَنُ الدَّاءِ وَبَابُ الشَّرِّ المُسْتَطِيرِ...

وَبَيْنَ المُطَالَبَةِ بِبَتْرِ كُلِّ مَا يَرْبِطُنَا بِهَذَا (الْمَاضِي) وَقَطْعِ كُلِّ صِلَةٍ بِهِ، [عَزْلُ الإِسْلاَمِ عَنْ مَاضِيهِ] وَأَنَّهُ سَبَبُ تَخَلُّفِنَا وَنَكَبَاتِنَا المُخزِيَةِ، وَالمُطَالَبَةِ بِالارْتِمَاءِ فِي أَحْضَانِ (الغَرْبِ) [أُورُبَّا وَأَمْرِيكَا؛ وَخَاصَّةً أَمْرِيكَا] المُمَثِّلِ [فِي زَعْمِهِمْ] لِرَكْبِ الحَضَارَةِ وَالتَّمَدُّنِ وَالرُّقِي وَالتَّحْدِيثِ وَالحَدَاثَةِ!... [وَتَفْتِيت الأُمَّةِ]

بَيْنَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ،.. بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ،.. بَيْنَ التَّقْلِيدِ وَالتَّجْدِيدِ،.. بَيْنَ الأَصَالَةِ وَالْمُعَاصَرَةِ،.. بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ،.. بَيْنَ الْوَافِدِ وَالْمَوْرُوثِ،.. بَيْنَ مَا هُوَ عَرَبِيٌّ وَمَا هُوَ غَرْبِيٌّ ...

بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ وَبَيْنَ الْمُوَاءَمَةِ بَيْنَهُمَا؛ تَتَعَدَّدُ الآرَاءُ وَالأَيدلُوجِيَّاتُ وَالنَّظَرِيَّاتُ المُخْتَلِفَةُ، وَ.. تَتَصَارَعُ!

وَالَّذِي لاَ شَكَّ فِيهِ وَلاَ رَيْبَ -مَعَ كُلِّ هَذَا الزَّخَمِ مِنَ التَّنَاقُضَاتِ-

اجْتِمَاعُ (الآرَاءِ) عَلَى رَفْضِ هَذَا (الوَاقِعِ) المَرِيرِ النَّكِدِ الَّذِي نَحْيَاهُ بِغُصَصِهِ، وَعلَى حَتْمِيَّةِ (التّغْيِيرِ)؛ أَيًّا كَانَتْ أَهْدَافُ المُطَالِبِينَ بِالتَّغْيِيرِ، وَنَوَايَاهُمْ مِنْ وَرَائِهِ، وَالوَسَائِلِ المُسْتَعْمَلَةِ فِي ذَلِكَ التَّغْيِيرِ المَرْجُو [بَلْ وَنَوْعِيَّةِ التَّغْيِيرِ نَفْسِهِ]. .. مِمَّا يَصِلُ بَيْنَهُمْ [أَيْ: بَيْنَ المُجْمِعِينَ علَى حَتْمِيَّةِ التّغْيِيرِ] إِلَى طَرَفَيِّ نَقِيضٍ!!

❁❁❁❁❁

وَلَكِنْ لاَ بُدَّ أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَى سُنَنِ اللهِ فِي خَلْقِه وَخَاصَّةً فِي بَابِ التَّغْيِيرِ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرَّعْد/ ١١).

قَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: "أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّهُ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَقَعَ مِنْهُمْ تَغْيِيرٌ؛ إِمَّا مِنْهُم أَوْ مِنَ النَّاظِرِ لَهُمْ، أَوْ مِمَّنْ هُوَ مِنْهُمْ بِسَبَبٍ؛ كَمَا غَيَّرَ اللهُ بِالمُنْهَزِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ بِسَبَبِ تَغْيِيرِ الرُّمَاةِ بِأَنْفسِهِمْ، إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْ أَمْثِلَةِ الشَّرِيعَةِ؛ فَلَيْسَ مَعْنَى الآيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عُقُوبَةٌ إِلاَّ بِأَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْهُ ذَنْبٌ، بَلْ قَدْ تَنْزِلُ المَصَائِبُ بِذُنُوبِ الغَيْرِ؛ كَمَا قال ﷺ: وَقَدْ سُئِلَ: أَنَهْلَكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: (نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ). وَاللهُ أَعْلَمُ!".

وَقَالَ الإِمَامُ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ فَيُزِيلُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفِسِهِمْ

مِنْ ذَلِكَ بِظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَاعْتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَحِلُّ بِهِمْ حِينَئِذٍ عُقُوبَتُهُ وَتَغْيِيرُهُ."

وَقَالَ العَلاَّمَةُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (أَضْوَاء الْبَيَانِ): "بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أَنَّهُ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنَ النِّعْمَةِ وَالعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلاَ.

وَالمَعْنَى: أَنَّهُ لاَ يَسْلِبُ قَوْمًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبَيَّنَ هَذَا المَعْنَى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنْفَال/ ٥٣). وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشُّورَى/ ٣٠)."أ.هـ.

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ (التَّغْيِير) يَنْبُعُ -فِي المَقَامِ الأَوَّلِ- مِنْ ذَاتِ الإِنْسَانِ [وَكَذَلِكَ: الأُمَم] مِنَ البِنْيَوِيَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ لَهُ [مِنْ دَاخِلِ الإِنْسَانِ ذَاتِهِ]، فَتَتَفَاعَلُ الأَفْكَارُ فِي النُّفُوسِ وَالعُقُولِ مِمَّا يُنْشِئُ دَافِعًا دَاخِلِيًّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ دَافِعًا سُلُوكِيًّا عَمَلِيًّا؛ مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ تَغْيِيرًا وَتَحَوُّلاً حَضَارِيًّا بِجَمِيعِ أَشْكَالِهِ وَصُوَرِهِ.

مَعَ الوَضْعِ فِي الاعْتِبَارِ أَنْ يَنْسَجِمَ التَّغْيِيرُ (البِنَائِيُّ) مَعَ (الأَصَالَةِ)، وَأَنْ يَكُونَ تَعْبِيرًا عَنِ الفَاعِلِيَّةِ فِي البِنْيَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ. ...

فَدِينَامِيكِيَّةُ الحَرَكَةِ التَّغْيِيرِيَّةِ (دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا) تَرْتَبِطُ بِطَبِيعَةِ الأَفْكَارِ،

وَدَرَجَةِ تَلَوُّثِهَا وَنَقَائِهَا، وَمَدَى تَجَذُّرِهَا وَانْبِعَاثِهَا مِنْ دِينِنَا [وَالإِيمَانُ بِأَنَّهُ لاَ يُتَصَوَّرُ عِزٌّ وَلاَ نَصْرٌ وَلاَ تَمْكِينٌ إِلاَّ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللهِ المَتِينِ]؛ فَلاَ بُدَّ مِنْ أَصَالَةِ الفِكْرَةِ، وَارْتِبَاطِهَا بِجُذُورٍ عَمِيقَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، مَعَ فَاعِلِيَّةِ السُّلُوكِ وَالحَرَكَةِ.

فَالسُّقُوطُ وَالنُّهُوضُ بِنْيَوِيٌّ دَاخِلِيٌّ فِي المُقَامِ الأَوَّلِ، وَأَسْبَابُ التَّخَلُّفِ (الدَّاخِلِيَّةِ) أَشَدُّ فَتْكًا بِأَوْصَالِ الأُمَّةِ [مَعَ عَدَمِ تَغَافُلِنَا عَنْ مُؤَامَرَاتِ أَعْدَائِنَا الَّتِي لاَ تَتَوَقَّف]، فَلِذَا يَلْزَمُ تَحْدِيدُ الأَسْبَابِ وَالأَهْدَافِ قَبْلَ البَدْأِ فِي أَيِّ تَحَرُّكٍ، مَعَ تَحْدِيدِ الاتِّجَاهِ مُسَبَّقًا بَعْدَ الدِّرَاسَةِ المُتَأَنِّيَةِ وَالوَاعِيَةِ.

فَلاَ بُدَّ مِنَ اخْتِرَاقِ طَبَقَاتِ الحَقِيقَةِ، وَمُسَاعَدَةِ العَقْلِ عَلَى رُؤْيَةِ الأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ دُونَ تَضْخِيمٍ أَوْ تَقْزِيمٍ، وَتَجَاوُزِ مَرْحَلَةِ العَفَوِيَّةِ وَالارْتِجَالِ وَالاجْتِهَادَاتِ الفَرْدِيَّةِ [وَصَبُّ ذَلِكَ فِي بَوْتَقَةِ الجَمَاعَةِ لِخِدْمَةِ الأُمَّةِ كُلِّهَا لاَ الفَرْدِ]، بَلْ لاَ بُدَّ مِنَ الاعْتِمَادِ عَلَى الدِّرَاسَاتِ العِلْمِيَّةِ الجَادَّةِ وَالوَاعِيَةِ، وَعَدَمِ التَّدَثُّرِ بِالأَوْهَامِ، وَالوُلُوجِ فِي الأَحْلاَمِ وَالخَيَالاَتِ، أَوْ حَتَّى مَا يَقُومُ عَلَى المِثَالِيَّةِ المُجَرَّدَةِ [المُحَلِّقَةِ عَالِيًا وَالبَعِيدَةِ عَنْ أَرْضِ الوَاقِعِ]، وَاسْتِشْرَافِ المُسْتَقْبَلِ بِرُؤْيَةٍ وَاعِيَةٍ وَقَادِرَةٍ عَلَى التَّطَوُّرِ وَالتَّجَدُّدِ؛ بَعْدَ رَصْدٍ وَتَقْيِيمِ الإِمْكَانِيَّاتِ المُتَاحَةِ، وَأَيْضًا بَعْدَ رَصْدِ التَّحَدِّيَاتِ وَالعَقَبَاتِ المُتَوَقَّعَةِ مِنْ كُلِّ الاتِجَاهَاتِ وَعَلَى كَافَّةِ الأَصْعِدَةِ، وَالوُصُولِ إِلَى مَجْمُوعَةِ المَفَاهِيمِ الَّتِي تُشَكِّلُ الصُّورَةَ الذِّهْنِيَّةَ الصَّحِيحَةَ عَنِ القَضَايَا وَالمُشْكِلاَتِ الَّتِي تُوَاجِهُنَا؛ مِنْ خِلاَلِ بَحْثٍ عَمِيقٍ وَمُرَكَّزٍ، وَتَوْلِيدِ أَفْكَارٍ بَنَّاءَةٍ، وَإِيجَادِ

الحُلُولِ المُثْلَى لِكُلِّ مَا يُوَاجِهُ الأُمَّةَ [أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ]، وَتَشْكِيلِ مَنْظُومَةٍ مُتَرَابِطَةٍ مِنَ الوَعْيِ وَالفَهْمِ وَالعَمَلِ وَالعَطَاءِ؛ تَدْفَعُ الأُمَّةَ نَحْوَ الأَمَامِ بِخُطًى ثَابِتَةٍ وَوَاثِقَةٍ.

فَلاَ بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى هَذَا وَذَاكَ، وَوَضْعِ اليَدِ عَلَى مَصَادِرِ الأَوْجَاعِ وَالأَسْقَامِ وَتَطْبِيبِهَا أَوِ اسْتِئْصَالِهَا، وَالقَضَاءِ عَلَى رَمْزِيَّاتِ الانْحِطَاطِ، وَمُعَالَجَةِ الأَدْوَاءِ بِرُؤْيَةٍ (عَقَدِيَّةٍ) صَحِيحَةٍ.

فَلاَ بُدَّ مِنْ وَضْعِ مِبْضَعِ الجَرَّاحِ عَلَى الدُّمَّلِ وَتَنْظِيفِهِ مِنَ القِيحِ وَالصَّدِيدِ؛ مَهْمَا كَانَ الأَلَمُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ.. وَالقَضَاءِ عَلَى عَوَامِلِ التَّخَلُّفِ وَالسُّقُوطِ؛ بِمُطَارَدَةِ الجَهْلِ وَمُحَارَبَةِ الخُرَافَةِ، وَالأَخْذِ بِأَسْبَابِ النُّهُوضِ، وَالوُصُولِ لآلِيَّاتِ التَّقَدُّمِ وَتَمَلُّكِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا وَالبَرَاعَةِ فِيهَا [بَلْ وَابْتِكَارِهَا]؛ عَلَى أُسُسٍ مَتِينَةٍ مِنْ ثَقَافَتِنَا الذَّاتِيَّةِ المُعْتَمِدَةِ عَلَى تُرَاثِنَا الأَصِيلِ، القَائِمِ عَلَى أَسْبَابِ نَهْضَةِ أُمَّتِنا؛ أَلاَ وَهُوَ: (القُرْآنُ) وَ(السُّنَّةُ) [مَعَ النَّظَرِ لِمَدَى التَّأْثِيرِ الهَائِلِ الَّذِي أَحْدَثَهُ (القُرْآنُ) فِي البِنْيَةِ العَرَبِيَّةِ بَلْ وَالبِنْيَةِ العَالَمِيَّةِ؛ حَيْثُ كَانَ (القُرْآنُ) هُوَ أَسَاسُ الحَضَارَةِ وَالرُّقِيِّ وَقْتَ التَّمَسُّكِ بِهِ].

وَمَعَ الوَضْعِ فِي الاعْتِبَارِ أَنَّ المَعْرِفَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ مَصْدَرُهَا مِنْ خَارِجِ النَّفْسِ وَهُوَ (الوَحْيُ) المُنَزَّلُ مِنَ اللهِ، وَالوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ وَوَحْيِ اللهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأَعْرَاف/٩٦).

مَعَ النَّظَرِ لِتَرْكِيبَةِ المُجْتَمَعِ وَطَبِيعَةِ ذِهْنِيَّتِهِ، وَطَبِيعَةِ الطَّاقَةِ التَّغْيِيرِيَّةِ الفَعَّالَةِ فِي الوَحْيِ الإِلَهِيِّ.

وَمَعَ عَدَمِ الدُّخُولِ فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ قَبْلَ دِرَاسَتِهَا وَالاسْتِعْدَادِ لَهَا، فَهُنَاكَ عِدَّةُ أَسْئِلَةٍ لاَبُدَّ مِنَ الإِجَابَةِ عَلَيْهَا قَبْلَ الدُّخُولِ فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ؛ هِيَ:

- هَلْ تَسْتَحِقُّ هَذِهِ المَعْرَكَةُ الدُّخُولَ فِيهَا؟

- هَلْ أَسْتَطِيعُ الانْتِصَارُ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ؟

-مَا الجَائِزَةُ الَّتِي سَتَتَرَتَّبُ عَلَى هَذِهِ المَعْرَكَةِ؟

❁❁❁❁❁

وَنَحْنُ -فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ- لاَ نُطَالِبُ بِبِنَاءِ مُجْتَمَعٍ جَدِيدٍ وَمِيلاَدٍ جَدِيدٍ عَلَى أُسُسٍ جَدِيدَةٍ [وَهَذِهِ مِنْ أَصْعَبِ وَأَشَقِّ المَرَاحِلِ، وَقَدْ تَخَطَّاهَا جِيلُ القُدْوَةِ؛ جِيلُ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ]؛ وَلَكِنْ: نُطَالِبُ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ .. بِانْطِلاَقِ مُجْتَمَعٍ غَيْرِ مُنْبَتٍّ عَنْ جُذُورِهِ، (فَأَيُّ مُجْتَمَعٍ هُوَ تَرَاكُمٌ بَطِيءٌ لِخِبْرَاتِ المَاضِي مَعَ التَّطَوُّرِ الآنِيِّ) مَعَ مُرَاجَعَةٍ وَتَنْقِيحٍ وَنَقْدٍ، .. وَبِنَاءٍ شَامِلٍ [مَعَ التَّطَلُّعِ المُسْتَقْبَلِيِّ] لِمَشْرُوعِ المُجْتَمَعِ المَنْشُودِ بِعُمْقٍ وَأَصَالَةِ الإِسْلاَمِ، بَعِيدًا عَنْ حَمَاسَةِ كَلِمَاتٍ جَوْفَاء وَشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ مُنْبَتَّةِ الصِّلَةِ عَنِ العَمَلِ الجَادِّ وَالمُثْمِرِ، وَبَعِيدًا عَنِ الأَحْلاَمِ القَعِيدَةِ دُونَ حِرَاكٍ، أَوِ امْتِدَاحِ المَاضِي السَّعِيدِ بِلاَ دِينَامِيكِيَّةٍ؛ مَعَ كَسَلِ الخِدْرِ اللَّذِيذِ المُؤَدِّي إِلَى المَزِيدِ مِنَ التَّأَخُرِ وَالتَّخَلُّفِ.

❁❁❁❁❁

إِنَّنَا نَرْفُضُ الاجْتِرَارَ وَمُحَاوَلَةَ الاسْتِنْسَاخِ النَّمَطِي المُشَوَّهِ لِلْمَاضِي بِمَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ عُقُودٍ (بَعْدَ التَّغَاضِي عَنِ الوَاقِعِ المُعَاشِ وَمُتَغَيِّرَاتِهِ) بِمَا فِيْهِ مِنَ اغْتِرَارٍ (وَتَغَنِّي بِأَمْجَادِ المَاضِي "السَّعِيدِ"؛ وَهُوَ كَذَلِكَ) وَانْحِسَارٍ اعْتِزَالِيٍّ وَتَقَوُّقُعٍ حَوْلَ الذَّاتِ، وَرُبَّمَا الانْخِنَاقِ فِي شَرْنَقَةِ هَذَا المَاضِي [فَلاَ نَرَى غَيْرَهُ]، دُونَ إِبْدَاعٍ عَمَلِيٍّ أَوْ عَطَاءٍ مُتَجَدِّدٍ...

وَلاَ بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ إِصْرَارِنَا عَلَى الحِفَاظِ عَلَى الهُوِيَّةِ (الإِسْلاَمِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ) وَعَدَمِ الانْسِلاَخِ مِنْ جِلْدِنَا (حَتَّى لاَ نُصْبِحَ مَسْخًا مُشَوَّهًا مُنْبَتَّ الصِّلَةِ عَنْ جُذُورِهِ).

كَمَا أَنَّنَا -مَعَ ذَلِكَ- نَرْفُضُ الانْبِهَارَ بِـ(الغَرْبِ) العَلْمَانِيِّ وَطُوفَانِهِ، وَالتَّبَعِيَّةَ لَهُ [وَتَيَّارَات (العَوْلَمَةِ) الجَارِفَةِ]، وَاعْتِبَارَهُ نَمَطًا (أَوْحَدَ) لِلتَّحْدِيثِ، وَنَمُوذَجًا (أَعْلَى) لِلثَّقَافَةِ (العَالَمِيَّةِ)، وَتَجْرُبَةً لاَ بُدَّ أَنْ يُحْتَذَى بِهَا، ... وَالاسْتِهَانَةَ بِكُلِّ مَا هُوَ إِسْلاَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ. ... وَمَا يَحْمِلُه ذَلِكَ مِنْ شُعُورٍ بِالصَّغَارِ وَالانْسِحَاقِ وَالانْهِزَامِيَّةِ المُقْعِدَةِ المُحْبِطَةِ، وَضَيَاعٍ لِلْهُوِيَّةِ، وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ انْتِحَارٍ وَمَوَاتٍ؛ بَعْدَ الاعْتِدَاءِ عَلَى الشَّرْعِ وَرُمُوزِهِ مِنْ صَحَابَةٍ وَعُلَمَاءٍ وَزُعَمَاءٍ وَقَادَةٍ.

وَالتَّنَبُّهِ لأَذْيَالِهِ [المُغْتَرِّينَ أَوِ المَأْجُورِينَ] مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا مِنْ بَائِعِي دِينِنَا بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا زَائِلٍ، المُرْتَمِينَ فِي ذِلَّةٍ وَمَهَانَةٍ عَلَى أَعْتَابِهِ، اللاَّعِقِينَ لِلأَحْذِيَةِ، المُرَوِّجِينَ لِفِتْنَةِ التَّشْكِيكِ وَالإِرْجَافِ وَالشَّائِعَاتِ وَالمُتَاجَرَةِ

بِالهَفَوَاتِ وَالسَّقَطَاتِ؛ بَعْدَ تَكْبِيرِهَا وَتَسْلِيطِ الضَّوْءِ عَلَيْهَا.

❁❁❁❁❁

مَعَ عَدَمِ رَفْضِنَا لِلأَخْذِ عَنِ (الغَرْبِ) كُلِّ مَا هُوَ مُفِيدٌ وَنَافِعٌ.. أَخْذٌ يَقُومُ عَلَى أُسُسِنا وَمَبَادِئِنَا وَقِيَمِنَا وَأَخْلاَقِيَّاتِنَا، وَعَلَى مُرْتَكَزَاتِنَا الأَصِيلَةِ الرَّاسِخَةِ، وَرَصِيدِنَا العَقَائِدِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالرُّوحِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ، ..

مَعَ طَرْحِ وَنَبْذِ أَفْكَارِ (التَّغْرِيبِ) وَالمَشَارِيعِ المَشْبُوهَةِ المُمْلاَةِ عَلَيْنَا مِنَ الخَارِجِ؛ وَالَّتِي تَتَلَقَّفُهَا الفِئَاتُ الضَّالَّةُ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا، ..

وَنَبْذِ الانْهِزَامِيَّةِ وَاليَأْسِ وَالقُنُوطِ المُوقِعَةِ فِي التَّبَعِيَّةِ وَالسُّقُوطِ، ..

وَ .. بِعَقْلِيَّةٍ نَاضِجَةٍ وَاعِيَةٍ لِرِسَالَتِنَا وَدَعْوَتِنَا وَحَضَارَتِنَا الإِسْلاَمِيَّةِ الرَّاقِيَةِ فِي أُسُسِهَا وَقِيَمِهَا وَمُثُلِهَا وَأَخْلاَقِهَا وَعَقَائِدِهَا وَعِبَادَاتِهَا. ...

عَقْلِيَّةٍ تَعِي لِلدَّوْرِ الرِّسَالِيِّ وَالقِيَادِيِّ لِلْبَشَرِيَّةِ المَنُوطِ بِهَا لِتَحْقِيقِ الأَهْدَافِ الكُبْرَى لِلإِسْلاَمِ ..

عَقْلِيَّةٍ ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ..

عَقْلِيَّةٍ فَاعِلَةٍ مُتَفَاعِلَةٍ تَعْرِفُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تُعْطِيَهُ لأَصْحَابِ الخَوَاءِ الرُّوْحِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ، أَصْحَابِ الحَيْرَةِ وَالتِّيْهِ وَالفَرَاغِ .. العَطَاشَى المُتَلَهِّفِينَ لِلْخَلاَصِ مِنْ بَرَاثِنِ المَادَّةِ وَأَنِّنِ وَنَتَنِ الحَيَاةِ الجَافَّةِ .. عَقْلِيَّةٍ تَعْرِفُ مَا تَأْخُذُ وَمَا تَتْرُكُ .. عَقْلِيَّةِ فَاعِلٍ لاَ مَفْعُولٍ بِهِ،.. لاَ العَقْلِيَّةِ السَّطْحِيَّةِ المُنْبَهِرَةِ!

❁❁❁❁❁

إِنَّهَا عَقْلِيَّةُ المُغِيْرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، وَرِبْعِيِّ بْنِ عَامِرٍ، ...

عَقْلِيَّةُ جِيلِ القُدْوَةِ مِنْ أَهْلِ القُرُونِ الثَّلاَثَةِ الأُولَى الخَيِّرَةِ ..

عَقْلِيَّةُ مَنْ يَعْرِفُ خُطُورَةَ المَهَمَّةِ الدَّعَوِيَّةِ المُلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِهِ!

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي كِتَابِهِ "الْبِدَايَة وَالنِّهَايَة" (٣٩/٧، ٤٠):

"قَالَ سَيْفٌ عَنْ شُيُوخِهِ: وَلَمَّا تَوَاجَهَ الْجَيْشَانِ [أَيْ: الإِسْلاَمِيّ وَالرُّومِيّ] بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْدٍ [أَيْ: ابْن أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ] أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُغِيْرَةَ بْنَ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتُمُ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا، وَكُنَّا نُحسِنُ إِلَيْكُمْ، وَنَكُفُّ الأَذَى عَنْكُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بِلادِكُمْ، وَلاَ نَمْنَعُ تِجَارَتَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بِلاَدِنَا.

فَقَالَ لَهُ الْمُغِيْرَةُ: إِنَّا لَيْسَ طَلَبُنَا الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هَمُّنَا وَطَلَبُنَا الآخِرَةُ، وَقَدْ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً؛ قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِي، فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلُ لَهُمُ الغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ، وَهُوَ دِينُ الحَقِّ لاَ يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلاَّ ذَلَّ، وَلاَ يَعْتَصِمُ بِهِ إِلاَّ عَزَّ.

فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ: فَمَا هُوَ؟

فَقَالَ: أَمَّا عَمُودُهُ الَّذِي لاَ يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلاَّ بِهِ؛ فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَالإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟

قَالَ: وَإِخْرَاجُ العِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ.

قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضًا، وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا؟

قَالَ: وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ؛ فَهُمْ إِخْوَةٌ لأَبٍ وَأُمٍّ.

وَقَالَ: حَسَنٌ أَيْضًا، ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلْنَا فِي دِيْنِكُمْ أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلاَدِنَا؟

قَالَ: أَيْ وَاللهِ! ثُمَّ لاَ نَقْرُبُ بِلاَدَكُمْ إِلاَّ فِي تِجَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ.

قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضًا.

قَالَ: وَلَمَّا خَرَجَ الْمُغِيرَةُ مِنْ عِنْدَهُ؛ ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الإِسْلاَمِ، فَأَنَفُوا ذَلِكَ وَأَبَوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيْهِ، قَبَّحَهُمُ اللهُ وَأَخْزَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ.

قَالُوا: ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولاً آخَرَ بِطَلَبِهِ، وَهُوَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ المُذَهَّبَةِ والزَّرَابِيِّ الحَرِيرِ، وَأَظْهَرَ الْيَوَاقِيتَ وَاللآلِىءَ الثَّمِينَةَ وَالزِّينَةَ الْعَظِيمَةَ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَدَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ البِسَاطِ، ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الوَسَائِدِ، وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلاَحُهُ وَدِرْعُهُ وَبَيْضَتُهُ عَلَى رَأْسِهِ؛ فَقَالُوا لَهُ: ضَعْ سِلاَحَكَ. فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكُمْ، وَإِنَّمَا جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي، فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلاَّ رَجِعْتُ. فَقَالَ

رُسْتُمُ: ائِذَنُوا لَهُ.

فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رُمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ، فَخَرَقَ عَامَّتَهَا.

فَقَالُوا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟

فَقَالَ: اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلاَمِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجِعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللهِ.

قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللهِ؟

قَالَ: الجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَفَرُ لِمَنْ بَقِي.

فَقَالَ رُسْتُمُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا؟

قَالَ: نَعَمْ! كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؟

قَالَ: لاَ، بَلْ حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا رُؤَسَاءَ قَوْمِنَا.

فَقَالَ: مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُؤَخِّرَ الأَعْدَاءَ ثُمَّ اللِّقَاءَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثٍ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ، وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ بَعْدَ الأَجَلِ.

فَقَالَ: أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ؟

قَالَ: لاَ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلاَهُمْ.

فَاجْتَمَعَ رُسْتُمُ بِرُؤَسَاءِ قَوْمِهِ؛ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتُمْ قَطّ أَعَزَّ وَأَرْجَحَ مِنْ

كَلاَمِ هَذَا الرَّجُلِ؟

فَقَالُوا: مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَمِيلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا، تَدَعْ دِيْنَكَ إِلَى هَذَا الْكَلْبِ؟ أَمَا تَرَى إِلَى ثِيَابِهِ؟

فَقَالَ: وَيْلَكُمْ! لاَ تَنْظُرُوا إِلَى الثِّيَابِ وَانْظُرُوا إِلَى الرَّأْيِ وَالْكَلاَمِ وَالسِّيَرَةِ، إِنَّ الْعَرَبَ يَسْتَخِفُّونَ بِالثِّيَابِ وَالْمَأْكَلِ، وَيَصُونُونَ الأَحْسَابَ."

إِنَّهَا - وَاللهِ - عِزَّةُ الإِسْلاَمِ، وَرِسَالَةُ الإِسْلاَمِ؛ وَالَّتِي عَمِلَ بِهَا المُسْلِمُونَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، حَتَّى إِذَا نُسِيَتْ ضَاعَتْ مِنْهُمُ الرِّيَادَةُ وَالسِّيَادَةُ!

فَلاَ مُدَاهَنَةَ[1] فِي دِينِ اللهِ وَلاَ نِفَاقَ وَلاَ مُوَالاَةَ لأَهْلِ البَاطِلِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلاَلِ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ الكَافِرَةِ وَالمُلْحِدِينَ والمُنَافِقِينَ وَالمُنْسَلِخِينَ مِنْ شَرِيعَةِ الإِسْلاَمِ تَحْتَ المُصْطَلَحَاتِ البَاطِلَةِ وَالمُوهِمَةِ مِنَ اللِّيبْرَالِيِّينَ وَالعَلْمَانِيِّينَ وَأَمْثَالِهِمْ!!!

❁❁❁❁❁

(١) المُدَاهَنَةُ فِيهَا تَرْكُ الدِّينِ لِصَلاَحِ الدُّنْيَا، وَلِذَا تَفْتَرِقُ عَنِ المُدَارَاةِ؛ فَالمُدَارَاةُ بَذْلُ الدُّنْيَا لِصَلاَحِ الدُّنْيَا أَوْ الدِّينِ أَوْ هُمَا مَعًا، وَهِيَ مُبَاحَةٌ، وَرُبَّمَا اُسْتُحِبَّتْ.